مدينة الفيحاء «الشيخ عثمان» في ذاكرة التاريخ والمدينة

● دخلت مدينة الشيخ عثمان التاريخ من أوسع أبوابه، بدخولها المجتمع المدني الحضري بكل صوره وأشكاله، وكانت بحق مدينة النور والتنوير والتنوع الاجتماعي والثقافي والنقابي والرياضي والفني.

وشكلت مدينة الشيخ عثمان نموذجاً حياً وراقياً لأجمل صور المدنية والرقي الحضاري حيث استطاعت من خلال فتح ابوابها لكل قادم اليها من محيطها الاقليمي وخارجه استيعاب كل قادم اليهاودمجه في نسيجها الاجتماعي دون تمييز أو اشارة الى مناطقية أوجهوية أو عشائرية أو قبلية بحكم كونها كانت ترفض أن تكون كذلك وهي مدينة التنوير والتنوع الاجتماعي والاخاء والسلام.

تنسب مدينة الشيخ عثمان الى ولي الله الصالح الشيخ عثمان بن محمد الوكمي الزبيري المقبور فيها وسميت المدينة باسمه.

ويقول الرحالة الانجليزي هنري سلت الذي زار المدينة في عام ١٨٠٩م وهو في طريقه الى سلطنة لحج - أن الشيخ عثمان كانت ماتزال غابة كثيرة الأشجار تبدأ من القرية حيث قبة ولي الله الصالح الشيخ عثمان الزبيري «اللحجي» وتمتد مساحاتها الخضراء الى عشرات الكيلومترات وتشكل مرعى رئيسياً للأغنام والجمال التي كانت تشاهد في كل انحاء الغابة.

تاريخ مدينة الشيخ عثمان الطيبة

- اشترى الانجليز من سلطان لحج الأرض الممتدة من «خور مكسر» الى ما وراء «بستان الكمسري» سابقاً «حديقة الشيخ عثمان حالياً».. وقد أسسوا البدايات الأولى للمدينة لاستيعاب الزيادة في عدد السكان..

ويعود تخطيط المدينة وبناؤها في الشكل الذي عليه الآن الى الانجليز.. أما مدينة الشيخ عثمان الأصلية فهي قرية «الشيخ الدويل» أي «الشيخ القديمة» التي كان يقع بجانبها قبر الولي الذي سميت باسمه.

وحيث ادركت بريطانيا في أواخر العام ١٨٧٠م أن عدن الباسلة مزدحمة بالسكان للغاية، وكان الحل المقترح من قبل الحاكم البريطاني في ذلك الوقت يكمن بشراء قرى الشيخ عثمان، والعماد، والأراضي المجاورة من سلطان لحج آنذاك بغية تشكيل مستوطنات «مدنية» لتخفيف الضغط السكاني في مدينة عدن، وكان الاقتراح قد عرض على حكومة الهند في العام ١٨٧٨م، وتمت الموافقة عليه في يونيو ١٨٧٩م، ولكن عملية الشراء الفعلية ثم تأجيلها الى أن تتحسن الظروف المالية.

وفي يوليو ١٨٧٩م تم دفع دفعة أولية قدرها ٢٠,٠٠٠ روبية لسلطان لحج، وفي العام التالي أدرك الانجليز أن شراء الأراضي ينبغي أن يكتمل دون مزيد من التأخير، وافقت حكومة بريطانيا في نوفمبر ١٨٨٠م على دفع ما يلي: ٣٥,٠٠٠ روبية لسلطان لحج، مما يجعل المجموع «٥٥,٠٠٠» و «٥,٠٠٠» أخرى للسلطان الفضلي الذي ادعى ملكيته لجزء من هذه الأراضي.. بالاضافة الى ٥,٠٠٠ اخرى لقاضي لحج الذي ساعد في التوسط في الصفقة.

اضافة الى الاتفاق الذي يقضي زيادة الاعانة الشهرية من حكومة بريطانيا لسلطان لحج لتعويضه عن خسارة عائدات الماء والملح من هذه الأراضي وجاء في الاتفاق أيضاً: على أن تغيير الحدود لن يغير من حق سلطان لحج على جباية مستحقات العبور على التجارة مع عدن.

وهكذا ولدت مدينة الشيخ عثمان الحديثة التي قسمت الى خمسة أقسام وهي: «a، b، c، d، e» والقسم الأخير يشغل مدينة الشيخ الدويل «أي الشيخ القديمة».

وكأي مدينة تتطلع الى دخول التاريخ من أوسع أبوابه بكل صوره وأشكاله من خلال دخولها المجتمع المدني الحضري ومع وجود المخلصين من ابناء المدينة شهدت مدينة الشيخ عثمان معالم راقية جداً في عدة مجالات اسست صروح المجتمع المدني الحضري ذات الطابع الاقتصادي والصحي والتعليم يعى النحو التالي:

- مستشفى كيت فولكنر «الذي عرفه المجتمع باسم مستشفى «عفارة» حيث تشعبت أغراض وخدمات هذا المستشفى الذي كان يتبع الكنيسة الاسكتلندية، والذي قدم خدمات صحية «مجانية» لجميع فئات المجتمع والوافدين الى مدينة الشيخ عثمان من محيطها والممكلة المتوكلية آنذاك.

- وكان هناك الى جانب المستشفى، مدرسة، ومكتبة، ونادٍ رياضي، شكلت في مجموعها نشاطا كمياً ونوعياً لا ترقى الى مستواه أية جامعة محلية أو معهد عالي «في هذه الأيام».

ومن خلال تلك المنظومة نشأ وترعرع فيها «عمالقة» بحجم محمد مرشد ناجي، عبدالله فاضل فارع، محمد احمد ثابت، اسكندر ثابت، والنقابي الفذ محمد سعيد مسواط، وغيرهم الكثير في قائمة تطول، حيث نشط شباب مدينة الشيخ عثمان في اتجاهات عدة منها «المسرح» وفي النادي الرياضي المعروف آنذاك باسم نادي الميشن».

في المجال الصناعي

نشأت عدة صناعات كانت ضرورية لتلبية احتياجات المدينة وما في محيطها وخارجه.. حيث تأسست مصانع الملابس القطنية وازدهرت صناعتها ويعتبر المملاح أول مشروع استثماري صناعي في عموم الجزيرة العربية والذي أنشأ العام ١٨٨٦م وهو نفس العام الذي شهد ميلاد غرفة تجارة عدن.

في المجال الثقافي

شهدت مدينة الشيخ عثمان حركة واسعة في مجال الثقافة والادب وتأسيس نواد ومنتديات لها.. ومنها نادي الشباب الثقافي، نادي الأدب العربي، الذي كان يترأسه الاستاذ عبدالمجيد الأصنج «والد الشخصية السياسية والثقافية عبدالله عبدالمجيد الأصنج» ومن اعضائه عبدالله علي عراسي «والد المحافظ الأسبق محمود عراسي» محمد مرشد ناجي، محمد سعيد مسواط وهاشم مصطفى عيسى «والد التربويين الفاضلين حسن هاشم رحمه الله، ومحمد هاشم مصطفى أطال الله عمره ومتعه بالصحة» والاستاذ سعد قعطبي «عم الاستاذ احمد قعطبي وخال محمود عراسي».. وغيرهم الكثير.

في مجال الحركة الرياضية

تم تأسيس نادي الواي «الشبيبة المتحدة» ونادي الهلال الرياضي، ونادي الشباب المحمدي «ymt» ونادي الأهرام «في الشيخ الدويل» ونادي النصر، ونادي الصبر، وغيرها من الأندية الرياضية.

بالاضافة الى نادي الأولاد - الذي كان يعنى برياضة كمال الاجسام ورفع الاثقال والملاكمة.

- وكما كانت مدينة الشيخ عثمان مدينة التنوير والنهضة فقد تم انشاء «الزاوية الثقافية» فيها والتي اقامها الشيخ عبدالله الحكيمي -رحمة الله عليه- وهو أيضاً صاحب مطبعة السلام والجزيرة التي سميت باسمها، وكان يرحمه الله من رواد النهضة في عموم الجزيرة العربية، وكان ينظم المحاضرات والمناظرات ومنها المحاضرة المشهورة التي نظمت عام ١٩٤٣م وكان محورها: «الصلاح أولاً- في من: الراعي أم الرعية؟!» وكان المتناظران فيها هما الشيخ عثمان الأزهري والاستاذ عبدالمجيد الأصنج ونشرت في جريدة «فتاة الجزيرة العدنية».

كما لا ننسى أن مدينة الشيخ عثمان احتضنت أول عمل نقابي بعد عدن في الجزيرة العربية، وثم فيها أنشأت نقابة العمال الفنيين التي عرفت باسم جمعية النجارين، ونقابة عمال الملح وغيرها، وقد شكلت الحركة النقابية الغرس الأول والأساس الأكبر للاستياء الاجتماعي والتوجه للعمل السياسي الوطني، وشكل حينها المد القومي العربي بقيادة الزعيم الخالد جمال عبدالناصر تفعيلاً حقيقياً لمشاعر الحرية لدى مواطني الشيخ عثمان بكل فئاتهم والتي تم التعبير عنها في الشارع على شكل مظاهرات واضرابات ذات دوافع سياسية محلية وقومية.

● كما لا ننسى أيضاً أنها مدينة المسرح والفن ومن رموزها: سعيد سالم يافعي الدقمي، واللامبو، الوطني، والغوراني ومحمد مرشد ناجي، والقعطبي، وعوض عبدالله المسلمي، وطه فارع، ومحمد صالح عزاني، ومحمد بن محمد باسويد، ومحمد سعد عبدالله، وفيصل عزيز، وعبدالله عبدالكريم، ومحسن بريك، ومحمود علي الحاج، وغيرهم الكثير الذين برزوا في عدة مجالات وأنشطة.

وعلى خلفية بروز الوعي السياسي الناضج بدأت بوادر التشكل الايديولوجي تطفو على السطح لتيارات «الناصريين، البعثيين وحركة القوميين العرب» وهذا ما هيأ مدينة الشيخ عثمان لاحتضان العمل الوطني والكفاح المسلح ابتداءً من الجبهة القومية الى الفرق الفدائية للتنظيم الشعبي للقوى الثورية مثل فرقة النصر، فرقة صلاح الدين، فرقة النجدة وفرقة سند والرسول.

وهكذا استحقت مدينة الشيخ عثمان لقب «فيتنام الجنوب» الذي اطلقته عليها الصحف البريطانية عقب زيارة بعثة الأمم المتحدة لتصفية الاستعمار.

عزيز القارئ الكريم هذا «شذر يسير» من تاريخ مدينة الشيخ عثمان التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه وسجلت حضورها في سِفْره كمدينة قدمت بسخاء كل ما لديها، وهي تتعرض اليوم لتغيير ديمغرافي.. وكما يقول المثل: الذي لا يعرفك لا يقدر قيمتك، لكن هذه هي مدينتي الشيخ عثمان «الفيحاء».

□ مسجد النور بالشيخ عثمان..

□ مدرسة قديمة في الشيخ عثمان..

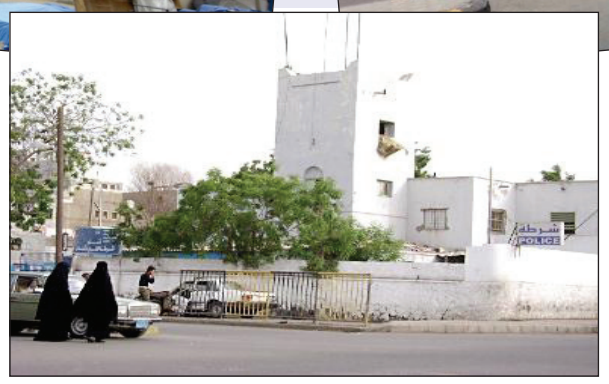
□ أقدم مركز شرطة بالشيخ عثمان..